التصوير الفني في القرآن

للأستاذ سيد قطب

التصوير هو الطريقة المفضلة في تعبير القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية ، وعن النموذج الانساني والطبيعة البشرية ، وعن الحادث والمشهد المنظور ، كلها سواء في طريقة التعبير المحسوس . وإنه ليرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد والقصص ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يخيل للمستمعين نظارة ، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات ، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع ، وأمر يكون :

فهذه شخوص ترح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة . . .

إنها الحياة هنا . وليست حكاية الحياة

فإذا ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية، وتشخص النموذجي الإنساني أو الحادث المروي ؛ إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر . . . أدركنا سر الإعجاز في تعبير القرآن .

والأمثلة على هذا الذي نقول هو القرآن كله ، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرناها : حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد أو حالة نفسية أو صفة معنوية أو نموذج إنساني ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ؛ أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقا ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس ، أو المتخيل المنظور .

وهذا هو الذي عنيناه حينما قلنا : « إن التصوير هو الطريقة المفضلة في تعبير القرآن » . فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ، وخاصية شاملة . يفنن في استخدامها على طرائق شتى ، وفي أوضاع مختلفة . ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة . قاعدة التصوير .

ويجب أن نتوسع في معنى التصوير حتى ندرك آفاق التصوير في القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة — عن طريق التخييل — كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التخييل. وكثيراً ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، وإيقاع الجمل ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان . وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر والوجدانات . فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في مشاهد طبيعية تخلع عليها الحياة . . . والآن نأخذ في ضرب الأمثال

١ — يريد أن يعبر عن معنى : إن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ولن يدخلوا الجنة إطلاقا » ، وأن دخولهم فيها مستحيل . وهذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة ؛ ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية :

« إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لا تفتح لهم أبوابُ السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلجَ الجملُ في سَمِّ الخياط »

ويدعك ترسم بخيالك مشهدا لتفتح أبواب السماء، ومشهدا آخر لولوج الحبل الغليظ فى ثقب الإبرة الصغير . « ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم «الجمل» خاصة فى هذا المقام ! » . ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالمشهدين ما شاء له التأثر ، ليستقر معنى «القبول» ومعنى « الاستحالة » فى أعماق النفس ، وقد وردا إليها من طريق العين والحس — تخييلا — وعبرا إليها من منافذ شتى ، لا من منفذ الذهن وحده ، فى سرعة الذهن التجريدية .

٢ — ويريد أن يوضح حالة نفسية لتزعزع العقيدة ، حيث لا يستقر الإنسان على يقين ، ولا يحتمل كل ما يصادفه من الشدائد فى سبيل عقيدته القوية ، مبتعدا بها عن ملابسات الحياة اليومية ، مرتفعا بها عن مقاييس الربح والخسارة . فإذا هو يرسم لها هذه الصورة المحسوسة .

« ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه . خسر الدنيا والآخرة . ذلك هو الخسران المبين »

إن الخيال ليكاد يجسم هذا « الحرف » الذى يعبد الله عليه هذا « النموذج » من الناس . إنه يتخيل الاضطراب المادى لهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع النفسى ، بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع لأنها تنطبع فى الحس ، وتتصل منه بالنفس

وإنى لأذكر الآن تلك الصورة التى ارتسمت فى خيالى وأنا طفل صغير ، أقرأ القرآن فى المدرسة الأولية ، حينما وصلت إلى هذه الآية . لقد خيل لى رجل على مكان مرتفع ذى حرف ؛ وهو قائم يصلى ، ورجلاه لا تثبتان على حرف المكان ، فهو يتأرجح فى كل حركة ، وهو معرض للسقوط فى أى لحظة !

ترى يبعد تصورى الآن كثيراً عن هذه الصورة الساذجة ؟ ما أظن . فالاختلاف الذى طرأ ، هو مجرد علمى اليوم ، بأن هذا مثل يضرب لا حقيقة تشهد .

وذلك هو إعجاز التعبير ، الذى تتقارب فى إدراكه شتى المدارك ، ويصل كل منها إلى صورة حية مع اختلاف الأفهام !

٣ — ويريد أن يرسم نموذجا إنسانيا للمكابر العاند فى كل زمان ومكان . فإذا هو يرسمه فى يسر وسرعة ودقة على هذا المنوال :

« ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ، فظلوا فيه يعرجون . لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » !

أو :

« ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس ، فلمسوه بأيديهم . لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » !

فيبرز من خلال هاتين الصورتين ، نموذج إنسانى معهود . لهؤلاء الذين يلجون فى المكابرة على الرغم من كل برهان . ولكن القرآن لا يقول كهذا الذى نقول : يلجون فى المكابرة على الرغم من كل برهان — إنه ليرسم لهم صورة شاخصة أوضح من كل تعبير ، لأنها تلمس الحس والضمير .

٤ — ثم ها هو ذا يصور حادثا وقع : مشهداً من مشاهد الهزيمة . فيرسم المشهد كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة ، والانفعالات المضمرة ، وتلتقى فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية ، كأنما يمثل الحادث من جديد ، ويقع مرة أخرى كما وقع فى المرة الأولى ، دون أن يغفل منه قليل ولا كثير :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون ، والذين فى قلوبهم مرض : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم : يا أهل يثرب لا مقام لكم ، فارجعوا . ويستأذن فريق منهم النبى يقولون : إن بيوتنا عورة — وما هى بعورة — إن يريدون إلا فرارا » .

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة ؛ وأية سمة من سمات الموقف الكثيرة ، لم يسجلها هذا الشريط الدقيق المتحرك المساوق لحركة الموقف الأصيل ؟

٥ — وهذا مشهد واحد من مشاهد القصص الكثيرة ، مشهد فى قصة الطوفان :

« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » وفى هـذه اللحظة تتنبه فى نوح عاطفة الأبوة . فإن هنـاك ابنا له لم يؤمن ، وإنه ليعـلم أنه مغرق مع المغرقين . ولكن ها هو ذا الموج يطغى ، فيتقلب « الانسان » فى نفس نوح على « النبى » ويروح فى لهفة وضراعة ينادى ابنه :

« ونادى نوح ابنه ـ وكان فى معزل ـ يا بنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » .

ولكن البُنوّة العاقة لا تحفل هذه العاطفة ، والفتوة المغرورة تعتمد على القوة الشخصية .

(قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) .

وفى لحظة تتغير صفحة المشهد فى تعبير خاطف ، يصـور الموجة العاتية تطغى على كل شىء : (وحال بينهم الموج . فكان من المغرقين) .

إن السامع ليمسك أنفاسه فى هذه اللحظات القصار : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ؛ ونوح الوالد الملهوف ، يهتف بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور ، يأبى اجابة الدعاء ، والموجة العاتية تحسم الموقف فى لحظة ؛ فكان من المغرقين » .

وإن الهول هنا ليقاس بعداه فى النفس الحية — بين الوالد والمولود كما يقاس بعداه فى الطبيعة ، حيث يطغى الطوفان ، على الذرى والوديان وإنهما لقياسان متكافئان !

٦ — والآن فإلى مشهد من مشاهد القيامة :

« يوم يدع الداع إلى شىء نُكُر . خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

فهذا مشهد من مشـاهد الحشر مختصر سريع ، ولـكنه شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث فى لحظة واحدة كأنها جراد منتشر — ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور هذا المشهد العجيب — وهذه الجموع ، تسرع فى سيرها نحو الداعى ، دون أن تعرف لمَ يدعوها ، فهو يدعوها إلى « شىء نكر » لا تدريه « خشعاً أبصارهم » وهـذا يكمل الصورة ويعطيها السمة الأخيرة . وفى وسط هذا التجمع والإسراع والخشوع « يقول الكافرون : هذا يوم عسر » .

فماذا بقى من المشهد لم يشخص بعد هذه العبارات القصار ؟

٧ — فإذا طرق القرآن موضوع الجدل حول إحياء الموتى مثلا ، صاغه فى قالب التصوير المؤثر ، ولمس به الحس والوجدان ، فيما ترى العين وفيما يستشعر الضمير :

« الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله ؛ فإذا أصاب به من يشاء من عباده ، إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لَمُبْلِسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شىء قدير » .

هكذا مشهد بعد مشهد : إرسال الرياح . إثارة السحاب . بسطه فى السماء . جعله متراكما . خروج المطر من خلاله . نزول المطر ، استبشار من يصيبهم بعد يأسهم إحياء الأرض بعد موتها ... لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ، وبعد تركها تؤثر فى النفس على مهل إلى : « إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير » فى أنسب اللحظات النفسية بهذا التقرير

* * *

هذه نماذج قليلة لطريقة القرآن العامة فى التعبير عن جميع الأغراض ، سواء كان الغرض تبشيراً أو تحذيراً . قصة وقعت أو حادثاً سيقع . منطقاً للاقناع . أو دعوة للايمان . وصفاً للحياة الدنيا أو للحياة الأخرى . تمثيلا لمحسوس أو ملموس . إبرازاً لظاهر أو لمضمر . بيانا لخاطر فى الضمير أو لمشهد منظور .

هذه الطريقة الموحدة . هـذه القاعدة الكبيرة . هى : « التصوير » فى أرقى آفاق التصوير .

سيد قطب

ميدان الأوبرا . مصر

دار الكتب الأهلية

تليفون ٤٩٥٦١

بمناسبة العام الهجرى

نقدم فهرست من مختلف الكتب ببعض محتوياتها

ص	
١٥	سارة المفاد
١٥	هتلر فى الميزان للمفاد
٢٠	عهد الشيطان توفيق الحكيم
٢٠	سلطان الظلام » »
١٠	المنفلوطى لمحمود بك تيمور
٢٠	صورة جديدة من الأدب العربى لكامل كيلانى
٢٠	اعترافات الغزالى للدكتور عبد الدايم البقرى
١٥	هكذا أغنى للشاعر محمود حسن إسماعيل
١٥	الاستمتاع للأستاذ سلام سعده
٧	كيف تنجح فى الحياة لأحمد أبو الخضر مدنى
١٠	أشواق للأستاذ محمود أبو الوفا
٧٨	الفنون الجميلة للأستاذ محمود قؤاد
٥	رسائل الوطواط جزآن للعلامة رشيد الدين الوطواط
٥	أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى لعبد العزيز جاويش
١٠	انتظار للمسيو اليوناى بلوطرخوس
١٥	التعاون للأستاذ أحمد لاشين
٥	فن البيع وتجارة التجزئة
٥	الوردة البيضاء لمحمود مولى
٣	الصدى الحزين لشفيق سكر
٥٠	السعادة الزوجية وضع زوجة
٨	بوابين للأستاذ أبو بكر المنفلوطى
٢	التمرينات الرياضية
٢	التمرينات الفرنسية
٣	حديقة الحيوان لمحمد إسماعيل إبراهيم
٢٥	الأسماء والصفات للبيهقى
٨	أدب الدنيا والدين
٨	تاريخ الخلفاء الراشدين
٥	الانسان والدنيا
١٥	خلاصة فنون الحرب لليوزباشى مصطفى حلمى (مجلد)
١٥	تاريخ الطيران للأستاذ محمد على محبوب
١٥	النجاة فى الحكمة المنطقية والآلهية للرئيس ابن سينا
٢	سفان فى السودان لمحمد صالح
٥	ديك الجن الحمصى لطاهر الجبلاوى
٨	هنرى الثامن للأستاذ عبد الرحمن فهمى
٣	القصص التاريخية للأستاذ عمران فرج

ص	
١٥	منار الرشد للأستاذ ابراهيم السيد إسماعيل
١٥	تفسير سورة الفاتحة للامام الفخر الرازى (مجلد)
٨	أسرار الشائعين وطرق مكافحتهم
٣٥	رسالة الغفران للمعرى شرح الأستاذ كامل كيلانى
٣٥	المرأة ومركزها الاجتماعى فى الدولة للأستاذ عبد البندارى
٣٠	مغامراتى فى أوربا المحللة للأستاذ عبد المنعم حسن
١٥	حدث فى باريس للأستاذ أحمد عطية الله
٧	الدماء لروكسة سعاد مدنى
١٢	ضجعة العروس للأستاذ إبراهيم عز الدين
١٢	الفاكهة قيمتها الطبية وفوائدها الغذائية للأستاذ عزالدين فراج
١٢	حديقة الحلويات للأستاذ عز الدين فراج
١٥	قصد الشارع من وضع الشريعة لفضيلة الشيخ محمد منير عمران
١٥	الوجديات للعلامة محمد فريد وجدى
١٠	ديوان أبو نواس شرح الأستاذ محمود كامل
١٠	تاريخ حرب فرنسا وألمانيا للط ابسى
١٥	حديقة أبو العلاء شرح الأستاذ كامل كيلانى
١٠	هاملت لشكسبير تعريب الأستاذ سامى الجريدينى
١٠	خمسة فى سيارة للأستاذ سامى الجريدينى
١٠	الرسائل الضائعة » » »
١٠	ألف باء الكهرباء لعبد العزيز محمد
١٢	ألف باء التجارب الكهربائية » » »
٣٠	زهرة العمر لتوفيق الحكيم
١٥	وحى السيرة للأستاذ أحمد الشايب
٣٠	رحلات لعبد الوهاب عزام
١٠	من الأعماق للأستاذ عبد العزيز سامى
١٠	فلسفة الكذب للأستاذ محمد مهدى علام
٣٠	على أطلال المذهب المادى أربعة أجزاء للعلامة محمد فريد وجدى
١٠٠	بالمجد لأموس عربى آخر طبعة
١٠٠	مجانى الأدب ستة أجزاء

دائرة المعارف المنزلية للعلامة أحمد زكى

٢٥	المجلد الأول من دائرة المعارف فى المنزل الحديث
٢٥	المجلد الثانى من دائرة المعارف فى الرياضة والصحة والجمال
٢٥	المجلد الثالث من دائرة المعارف فى الصناعات المنزلية
٢٥	المجلد الرابع من دائرة المعارف فى الطبيخ العالمى

جميع المراسلات والحوالات والشيكات ترسل باسم مديرها رشدى خليل

(يضاف ٣٠ فى المائة مصاريف إرسال)